اللغز الأعظم

«حدث منذ زمن بعيد أن كان أحد السلاطين يحكم ولاية صغيرة تقع في الجنوب من الهند، وقد إتصف بالعدل، والتدين، والكرم، مما جعله موضع حب رعاياه، فكانوا –من كبيرهم إلى صغيرهم– لا يترددون في إفتدائه بحياتهم.. بيد أن أقاربه كانوا يحسدونه على حب رعاياه، ويستكثرون عليه ما كان يتمتع به من جاه وسطوة. وكان لذلك السلطان زوجة بلغت من الفتنة والجمال حدا كان الناس معه يتوجونها –في أذهانهم– ملكة على كافة الحسان والفاتنات!.. وقد أنجبت له زوجته هذه ابنة ورثت عنها سحرها، فما رآها أبوها حتى سماها «جميلة».

غير أن مكائد أقارب السلطان ودسائسهم لم تلبث أن أتت ثمارها، فنجحت المؤامرة التي دبروها في خلعه عن العرش، وتقسيم السلطة فيما بينهم. إلا أن الملك تمكن من الفرار مع زوجته وابنته، تحت جنح الظلام، حاملًا معه كنزاً من الجواهر التي أمكنه إنقاذها. وولي وجهه مع أسرته شطر ولاية «مالافا» حيث يعيش والد زوجته.

وكان الليل قد أرخى سدوله حين بلغ السلطان حدود الأحراش الكثيفة التي تكسو جبال «فندهيا»، وهناك إستسلم للبكاء والنشيج حزناً وأسى، وإستنكاراً لغدر الزمان وتقلبات الدهر. وكانت الشمس قد هبطت في هوة الغروب وهي تبعث إليه بإشارات التحذير من إجتياز الغابة – المكتظة باللصوص وقطاع الطرق– تحت جنح الليل. بيد أن الملك الجسور، الذي لا يرهب خطراً، والذي سيغت روحه من أوراق شجر «الكوسا» الحادة الأطراف، لم يعر تحذيرها إهتماماً، وإنما حث الخطى –مع أسرته– حتى وصل إلى وكر قبيلة «بهيل» التي إحترف أفرادها سلب أمتعة المسافرين والإعتداء على حياتهم.

ولمح أفراد العصابة الملك يقترب من وكرهم، مرتدياً زبه الملكي، حاملًا مجوهراته، فهب عدد منهم إلى سيوفهم وكافة أنواع أسلحتهم، ليهجموا عليه ويستولوا على ثروته. ولمحهم السلطان بدوره، فطلب من زوجته وابنته أن تختفيا بين أغصان الأشجار المتشابكة، حتى لا تقع أيدي أولئك المتوحشين عليهما، فإستجابت الملكة لطلب زوجها، وهرعت مع ابنتها –في فزع وجزع عظيمين– لتختفيا بين الأحراش الكثيفة..

ووقف السلطان بمفرده شاهراً سيفه ودرعه لبلاقي بهما جيش المعتدين الذين هجموا عليه بعنف، حتى إذا بلغوا مرمى سهامه عاجلهم بوابل منها فأسقط منهم الكثيرين مجندلين، بيد أنهم لم يلبثوا أن تكاثروا عليه، فأطاحوا بدرعه وسيفه، ثم حزوا رقبته بسيوفهم. وروعت الملكة

عندما شاهدت الصورة التي لاقي بها زوجها حتفه غيلة وغدراً، غير أنها لم تجرؤ على إتيان أية حركة، حتى إنصرفت «قوات الظلام»حاملة معها مجوهراتهم. فخرجت عندئذ من مخبئها، وإقتربت من زوجها الراقد على الأرض غارقاً في دمائه، يراودها الأمل في أن تكون ثمة أنفاس لا تزال تتردد في صدره. ولكنها تبينت أنه فارق الحياة، فجلست بجواره تندبه وتبكيه. بيد أن هاجساً لم يلبث أن ألم بها، فخشيت أن يعود اللصوص مرة أخرى، وهاجمها الخوف والفزع. ومن ثم سحبت ابنتها من يدها، وراحت تركض بها، فلم تتوقف حتى بلغت غابة أخرى نائية.

وعند الظهيرة، جلست مع ابنتها في ظل الأشجار تلتقطان أنفاسهما، وهناك أستسلمتا لأشجانهما، وذرفتا الدموع الساخنة من فرط اللوعة والأسي.

***

وفي تلك الأثناء، خرج نبيل يدعى «كاندراسيمها» مع ابنه «سيمهاباركراما»، على صهوة جواديهما للصيد –وكانا يقطنان في تلك الغابة– فوقع بصرهما على صفين من آثار أقدام واضحة على الرمال. وعندئذ قال النبيل لابنه: «لنتبع آثار هذه الأقدام التي تنم عن جمال صاحبتيها، فإذا لحقنا بهما، لك أن تختار منهما التي تروق في عينيك لتكون زوجة لك!»، فأجابه الابن قائلًا: «لا حاجة بي لأن أنتظر رؤيتهما، لكي أدرك أن القدمين الصغيرتين تمتان لفتاة في مقتبل العمر، وهي التي

ستغدو خير زوجة لي. أما الأخرى ذات القدمين الكبيرتين، فأغلب الظن أنها في منتصف العمر، ومن ثم فهي تناسبك أكثر!».

فإستنكر الأب كلام ابنه وقال له: «ما هذا الهراء الذي تتفوه به. إن جسد أمك لم يبرد بعد، وروحها لم تنطلق إلى السماء غلا منذ قليل. فكيف أفكر في الزواج من إمرأة أخرى، وقد فقدت –لتوي– زوجتي المثالية؟».. إلا أن الإبن لم يقتنع بمنطق أبيه وراح يجادله قائلاً: لاتقل هذا يا أبي. أن زواجك من إمرأة أخرى لا يعني أنك خنت عهد أمي، فأنت في حاجة إلى الزواج أكثر مني.. لأن منزل الرجل يظل شاغراً لا روح فيه إذا خلا من زوجة. ألم تبلغك حكمة «مولاديفا» الذي قال أن البيت لا يعد بيتاً بالنسبة لصاحبه إذا خلا من زوجة فاتنة، وإنما هو أقرب إلى سجن

جرد من وسائل الحراسة، لا يؤمه إلا الحمقى!.. فلتحل بي لعنة الموت إذا لم تأخذ المرأة الثانية زوجة لك!».

وأخيراً إقتنع الأب بمنطق ابنه، وراح الإثنان يتبعان آثار الأقدام، حتى وقع بصرهما –أخيراً– على الملكة «كاندرا فاني» وابنتها جالستين تحت الشجرة بالقرب من البحيرة. ولاحت لهما الأم ببشرتها السمراء وعقود اللؤلؤ التي تزين جيدها الفاتن، أشبه بالسماء الصافية الأديم، عند منتصف الليل، وقد أضاءت صفحتها أشعة القمر وقت إكتماله. أما الابنة فكانت هي القمر بذاته!.

ولمحت الملكة وابنتها الفارسين اللذين كانا يتقدمان نحوهما، فحسبناهما لصين، فنهضنا على أقدامهما مرتجفتي الأوصال. إلا أن النبيل راح يهدىء من روعهما قائلاً: «لا تخافا، أيتها السيدتان الفاضلتان، فإننا لسنا من قطاع الطرق، وليس لنا مأرب في نفائسكما.. أن بوسعي أن أحكم من لباسكما الأنيق والجواهر الكريمة التي تتحليان بها، إنكما من كرائم العائلات وقد خرجتها للصيد في الغابة».

بيد أن المرأتين ظلتا مترددتين، غير مطمئنتين، فترجل الابن «كاندراسيمها» عن جواده، وخاطب الأم قائلاً:

«ليس ما يدعو للخوف ياسيدتي. فقد إقتفينا أثر كما تحدونا أطيب النوايا وأنبل الأغراض. تمالكي نفسك وأخبريني من تكونين؟.. أتراك ربة العشق خرجت إلى الغاية لتنوح على حبيبها «إله الحب» الذي أحرقته عين الإله «سيفا» الثالثة [٧] ؟.. لماذا توغلتما في الغابة الموحشة حتى بلغتما هذا المكان؟.. إن أناقة ثيابكما تجعلكما خليقتين بأن تكونا زينة أفخم المخادع في أعظم القصور الملكية!.. إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل عن السبب الذي جدا بكما الى السير بأقدامكما الرقيقة المرفهة –والتي تعتز بإمتلاكها سليلات المجد وكرائم السيدات–

([٧])تحكى الأساطير الهندية أن الإله سيفا -إله الإنتقام- كان يملك عيناً ثالثة، وقد أصيب بسهم أطلقه عليه إله الحب، أثناء تقديم ذبائحه على جبل «كابلاسا»، فإنتقم لنفسه بأن صوب نحوه شعاعاً نارياً من عينه الثالثة، فقضى عليه!.

فوق أرض الغابة المليئة بالأشواك! وليس لي أن أسأل كيف عجزت ذرات التراب الذي تذروه الريح عن تشويه قسمات وجهيكما، وكيف حدث أن هذه الشمس المحرقة التي صبغت بشرتنا، لم يكن لها من تأثير على بشرتكما أكثر من تأثير دغدغة النسيم العليل وهو يداعب جسديكما اللذين يحكيان الأزهار رقة ونعومة! ولكنني مشتاق يا سيدتي لأن أعرف ما هو الأمر الجلل الذي دفعكما لأن تخرجا إلى هذ الغابة المكتظة بالوحوش الضاربة!».

وظلت الملكة تستمع في ألاة إلى حديثه المنمق المهذب، ولم تلبث أن تغلبت على حيائها، فقصت عليه ما حدث لهما بالتفصيل. وقد روع النبيل حين علم أن الملكة وابنتها إضطرتا إلى الفرار بغير حراسة. وراح يحاول أن يبث الطمانينة في نفسيهما بعبارات تفيض حنواً وعطفاً. ثم اأكب الأم أمامه فوق جواده والابنه أمام ابنه، وساروا جميعاً إلى الضيعة التي يملكها النبيل في قرية «فينابابوري».

وهناك إكتشف النبيل أن الابنة هي صاحبة القدمين الكبيرتين، فاتخذها زوجة لنفسه، أما الأم فغدت من نصيب الإبن إذ كانت هي صاحبة القدمين الصغيرتين. ذاك لأنهما لم يشاءا أن ينقضا الإتفاق الذي عقداه في الغابة حين كانا يقتفيان آثار أقدام المرأتين، لأن الوفاء بالوعد من شيم الكرام. وقد نجم عن الخطأ الذي وقعا فيه أن صارت الأم زوجة ابنتها، والابنه زوجة ابن الزوج! وبمرور السنين أنجبت كل من الأم و ابنتها أولاداً وبناتاً، ورزق هؤلاء بدورهم بأولاد وبنات!»

وكانت تلك هي عقدة اللغز الأعظم، فسأل الشيطان الملك «تريفيكراماسينا» قائلاً: «أخبرني أيها الملك، ماهي القرابة بين أبناء الأب والابنة وأبناء الأم والابن؟.. ستحل بك اللعنة إذا كنت تعرف الجواب وتتواني في الإفصاح عنه!».

وراح الملك يقدح زناد فكره ليصل إلى الحل الصحيح، لكنه أخفق في الوصول إليه. فلما أدرك أنه قد غلب على أمره لزم الصمت. وعندئذ إبتسم الشيطان المتقمص جثة الميت التي تحملها الملك فوق كتفيه، قائلًا في نفسه: «لقد عجز الملك –في هذه المرة– عن حل اللغز، ومن ثم أمن شر لعنتي، فسار في طريقه جذلًا طروبا. إن قلبي لا يطاوعني على التمادي في خداع هذا الرجل الطيب، ذي القلب النبيل. ولكن ماذا أملك أن أفعل، وذلك الراهب اللئيم لن يتردد في الإقدام على أية فعلة خسيسة للإقتصاص منه؟ ينبغي أن يتفتق ذهني عن خطة ماكرة لخداع ذلك المتسول الشرير، محولًا دفة النصر إلى هذا الملك النقي السريرة!».

ثم قال الشيطان للملك بصوت مرتفع: «يا صاحب الجلالة. إنني أرى أنك تكاد تسقط من فرط الإعياء والخور، بعد كل هذا الغدو والرواح في أرض المحرقة هذه، الرهيبة المنظر في ظلام الليل. إلا أن روحك تتوق إلى السلام، في غير تردد ولا تخاذل. ولما كنت معجباً بمثابرتك وصبرك النادرين، فقد قررت أن أعفيك من حمل هذه الجثة، على أن تنصيب جيداً إلى ما سأقوله لك وأن تنفذه حرفياً. إن ذلك

المتسول –الذي طلب منك أن تحضر له الجثة– إنما هو أحد أتباعي، وقد غضبت عليه لإرتكابه الشرور والآثام، وهو يحاول منذ مدة طويلة أن يفوز بعفوي، بتقديم الذبائح والقرابين لي. لذلك أحسبه قد إختارك لتكون ذبيحته التالية التي يتوسل بها لكسب رضائي. إنه سيطلب منك أن تستلقي على ظهرك، بحيث تلمس أطرافك الأرض، فإذا فعل ذلك إطلب إليه أن يريك الطريقة. وعندئذ أهجم عليه وأقطع رقبته بسيفك، وبهذا تفوز –دونه– بالمأرب الذي يسعى إليه: وهو الجلوس على عرش مملكة الجن، وإلا فإنه سيضحي بك. هذا هو السبب الذي أغراني على مطاردتك بقصصي وألغازي طوال الوقت!».

وعلى الفور انسل الشيطان من الجثة. وسار الملك بحمله يمعن التفكير في عجائب الدنيا، وكيف أن المتسول «كشانتيلا» قد ظهر على حقيقته، فإذا هو راهب شرير بيد أن الملك كان من أولئك الذين يسلمون أمورهم للقدر يتصرف فيها كيفما شاء، ومن ثم عادت السكينة إلى نفسه، وواصل سيره نحو شجرة «الفاتا» حيث وجد الراهب يربض في إنتظاره. وهنالك رآه يحملق في أرض المحرقة التي ألقى عليها الضوء الخافت المنبعث من الهلال الهزيل منظراً رهيباً مفزعاً. ولمح الملك على الأرض المغطاة بالدماء دائرة سحرية رسمها الراهب بمسحوق العظام الأبيض، وقد أضاء الدائرة نور يعشي الأبصار، ساطع من مصابيح موقدة باللحم البشري. لقد أعد ذلك الشيطان المذبح، ولم يبق سوي الضحية ذاتها!.

ورفع المتسول عينيه، وإذ رأى الملك قادماً يحمل الجثة، هب واقفاً على قدميه، وقد أشرق وجهه بإبتسامه كالحة، فما وصل الملك إليه حتى بدأ يكيل له المديح والثناء، متغنياً بمآثره وعظمته، قائلاً: «آه أيها المهراجا العظيم. لقد غدرتني بفضل لن أنساه لك مدي الحياة، وقمت لأجلى بخدمة تعد في حكم المستحيل. إذ لايوجد ما يقسرك على مغادرة قصرك الآمن وفراشك الوثير، في هذه الساعة من الليل، بينما الأمر لا ينطوي على أية فائدة لك. ولا عجب الآن في أنهم بعدونك أعظم الملوك قاطبة، لأنك تتصف بالأمانة في معاملتك، وبالمحافظة على كلمتك. وقد ثبت ذلك في أجلي صورة، إذ أدت عمل غيرك غير مبال بما تتعرض له حياتك من خطر. وهذا بذاته هو الذي سماه القدماء -منذ قديم الأزل- عظمة العظيمة!».

وقد حسب الراهب أن أمانيه على وشك أن تتحقق، فأنزل الجثة عن كتف الملك، وغسلها ودهنها بالطيب والمسك، ثم زينها بالورود والرياحين، ووضعها داخل الدائرة السحرية التي رسمها!.. ووقف برهة يحملق فيها وهو مستغرق في تفكير عميق، ثم أدى بعد ذلك طقوس عبادته، وقدم بعض الذبائح التي تتألف من جمجمة طفل رضيع، وباقة من الزهور، وقدر من المعاجين المعطرة، ثم أطلق البخور بأن أحرق عينين آدميتين وشريحة من اللحم البشري!.. حتى إذا إنتهى من هذه الطقوس إلتفت إلى الملك قائلاً: «ياصاحب الجلالة، تمدد على ظهرك فوق الأرض أمام الساحر العظيم الماثل أمامك. وسأحقق لك أية رغبة مهما كانت عسيرة التحقيق!».

وأعادت تلك الكلمات إلى ذهن الملك تحذير الشيطان، فأجابه قائلاً: «لست أعرف كيف أفعل ذلك ياسيدي المبجل، فأرني أولًا وسأفعل مثلك!».. فاستلقي المتسول على ظهره ليريه الوضع المطلوب، وعندئذ بادره الملك بضربه من سيفه أطاحت برأسه، ثم شق صدره وإنتزع منه القلب الذي كان يشبه زهرة اللوتس المتفتحة.

إذ ذاك إحتشدت آلاف الأشباح في السماء تهلل وتهتف –في حماس– بحياة الملك البطل. وظهر الشيطان للملك مرة أخرى وخاطبه قائلاً: «لقد أصبحت مملكة الجن تحت امرتك حين تنتهي أيام حكمك على الأرض. وهو الشيء الذي كان المتسول يتحرق شوقاً إلي الحصول عليه!.. وهذه مكافأتك على طول صبرك وإحتمالك!».

فأجابه الملك قائلاً: «إن أعظم مكافأة لي أن أراك مغتبطاً راضياً. إلا أن ثمة رغبة واحدة أرجو أن تحققها لي: وهي أن يتاح لتلك الألغاز الرائعة التي سردتها لي –ولاسيما اللغز الأخير الذي عجزت عن حله– أن تتناقلها الألسنة من جيل إلى جيل!»، فقال الشيطان: «لا بأس، لسوف أجيب رغبتك، فأجعل هذه القصص خالدة على مدى الزمن، وسأعمل على أن يكسب كل من يقرأ هذه القصص بتمعن وانتباه مناعة ضد الشياطين والغيلان والساحرات والمردة والخائنات من النساء! قال الشيطان ذاك ثم اختفى بقوة السحر. وعندئذ ظهر الإله «سيفا» – محوطًا بباقة من الآلهة –وقال للملك «تريفيكراماسينا»: طوباك من بين بني البشر! أنت يا من قتلت ذلك الراهب المزيف الذي كان يطمع في

السيطرة على عالم الجن. فمنذ البدء خلقتك –من قطعة مني –وأنا أعلم أنك ستقهر قرى الشر الكامنة في بعض البرابرة. لذلك حبوتك بصفات الشجاعة والقوة والأمانة، وستكون أنت الحاكم على كل ممالك الأرض فضلاً عن مملكة الجن. وستنعم بكل الملذات الدنيوية والسماوية. ولكن نفسك لن تلبث أن تعاف كل هذه الملذات، فتنبذها باختيارك. وفي النهاية ستتحد معي بواسطة هذا السيف الذي سيكون وسيلتك إلى تحقيق كل أهدافك! ».

وقد دارت كل هذه الأحداث قبل أن ينصرم الليل، فعاد الملك –قبيل الفجر –إلى دولته «براتيشتانا» حيث قابله الأهالي باحتفال عظيم، ولم ينتظر الملك ليغتسل من وعثاء الطريق، بل سارع إلى توزيع الصدقات، ثم قدم فروض العبادة للآلهة «ابنة الجبل»، وقضى بعض الوقت يستمتع بالغناء والموسيقى والرقص.

ولم تمض سنوات حتى كان حكم الملك «تريفيكراماسينا» قد امتد إلى كل ممالك الأرض، بفضل سيف الإله «سيفا» السحري، وشجاعة الملك النادرة وتحقق وعد الإله الأعظم له، فظل فترة طويلة ينعم بملذات عالم الأرواح.. إلى أن اتحد مع الإله !!